نظم الاسواق من خلال الرحالة والجغرافيين

قصري ورجلان و تقرت نموذجا

أ/عبد الحق بالنور/كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية/ جامعة حمة لخضر– الوادي.

الملخص:

يعتبر ازدهار أو ضعف التجارة مرتبط بمدى قوة المدينة وخبرة ساكنيها وقدرتهم في التعامل مع متطلبات الحياة الضرورية التي يجب توفيرها، خاصة وان القصور بمنطقة الدراسة تعد احدي الروابط التجارية بين الشمال الافريقي والسودان الغربي ،فلا بد لها من مكان تتم به تلك التجارة والتي يطلق عليها بالأسواق غير انها تختلف باختلاف معروضاتها فكان لها نظم خاصة ،والتي تطرق لها كل من الرحالة و الجغرافين خلال زيارتهم للمنطقة والتي سنتطرق اليها من خلال هاته المداخلة

يقول الدكتور ابو القاسم سعد الله رحمه الله ،في حديثه عن التراث بانه ليس جديدا في قراءاته اذ لا بد ان ننطلق من مفاهيم العصر وحاجة الإنسان إلى الاستفادة منه والتي تظل دائما عملية مرغوب فيها بل هي عملية تقضيها سنة الحياة وروح التقدم1،لذا وجب علينا دراسته والمحافظة عليه ،كما يقول مؤرخ العلم المعاصر جان دومبريه 2في هذا الصياغ ان التراث العلمي لا يزال مجال عمل ضخم لم يتم، لذا نجد هذه الحركات لإحياء التراث والثقافة ونشر

الدراسات والأبحاث العلمية ،باعتباره مسؤولية عالمية، ومما يستوجب علينا الجد في العمل والاجتهاد في دراسة ما خلفه لنا الرحالة والجغرافيين من خلال ما خلفوه من كتب او مخطوطات ، التي تعتبر جزء من ماضي امتنا العريق الذي لا بد لنا من دراسته وربطه بحاضرنا.

ومن أبرز المحاور التي أرست قواعد التعاملات التجارة لذا نجدها محتلة مكانة رفيعة في الاسلام خاصة وان الرسول عليه الصلاة والسلام كان يزاولها ،ليشتغل خلفائه من بعده بها ايضا ،فقد وردت العديد من الاحاديث الشريفة التي تمجد هاته المهنة لكن على ان تكون مبنية على الصدق والصفاء ، فيقول عليه الصلاة والسلام :"التاجر الصدوق مع النبيئين والصديقين والشهداء"[3] ، فالتجارة هي العمود الفقري لاقتصاد ، وتعتبر الحركة التجارية من أهم العناصر الاقتصادية المميزة فالمتتبع لهذه الأخيرة يمكنه معرفة الحركة اليومية والسنوية لسكانها ومدى ارتباطهم بما يدور حولهم من أحداث، إذ أن ازدهار أو ضعف التجارة مرتبط بمدى قوة المدينة وخبرة ساكنيها وقدرتهم في التعامل مع متطلبات الحياة الضرورية التي يجب توفيرها او للتعامل مع التجار الأجانب .

ومما لا شك فيه ان الرسول عليه الصلاة والسلام قد اهتم بإنشاء السوق ،فيبرز لنا ذلك جليا من خلال التخطيط الحضاري الاسلامي الجديد ،وذلك من خلال الحفاظ على سلامة البيئة التي يعيش بها ،كما انه اقر نظام المراقبة في الاسواق ليوضح الاسس الاسلامية في التعامل وعلى هذه القاعدة

للتعامل سلم عمر سوق المدينة وبعد فتح مكة سنة ٨ للهجرة استعمل سعد بن العاص على سوقها وربطت الشوارع والطرقات باعتبارها شرايين الاتصال بين هذه التكوينات المعمارية وكشفت الروايات التاريخية ان المدينة خط بها شارع رئيسي يمتد من المسجد ويتجه غربًا حتى يصل الى جبل »قبا « وطريق من المسجد يخترق منازل بني عدي بن النجار ويصل الى » سلع« وقامت على جوانب هذه الشوارع ، »البقيع « جنوبًا ومن قبا طريق يتجه شمالا الى الرئيسة التكوينات المعمارية المختلفة وتفرعت منها شوارع فرعية تتوغل داخل خطط الأنصار والمهاجرين لتسهيل التوصل الى مسجد الرسول في المركز.

وهكذا ربطت هذه الشوارع المدينة ومحلاتها ربطًا عضويًا بما حولها من محلات سكنية متناثرة الى مدينة تتصل اطرافها بطرقات رئيسة بمركز المدينة وبالذات المسجد الجامع. والتي تظهر جليا في الرحبات المحيطة بالمسجد الجامع للجميع القصور التي قمت بدرستها والتي سأتطرق اليها لاحقا .

فنظم الاسواق تندرج بدورها ضمن نطام الحسبة وهي تعرف بالامر بالمعروف والنهي عن المنكر اذا اظهر فعله ، لقوله تعالي ((**ولتكن منكم امة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر**))[4].

فيقوم نظام الحسبة في جوهره على حماية محارم الله تعالي ان تنتهك ، وصيانة أعراض الناس والمحافظة على المرافق العامة والامن العام للمجتمع ،ويتضح دوره جليا في الاشراف على الاسواق وأصحاب الحرف والصناعات

والـــزامهم بضـــوابط الشـــرع في اعمـــالهم ،ومـــدي التـــزامهم بمقـــاييس الجـــودة في انتاجهم.

فالرسـول عليـه الصـلاة والسـلام مؤسـس هـذا النظـام ،فـروي عـن ابي هريـرة رضـي الله عنـه ان النـبي عليـه الصـلام والسـلام مـر علـى السـوق فأدخـل يـده في بضـاعة للطعـام فوجـد فيهـا بلـلا ،وعنـدما سـأل البـائع عنهـا أجابـه بأنهـا مـن فعـل المطـر فقال عليـه الصـلاة والسـلام أفـلا تجعلـه فـوق الطعـام حـتي يـراه النـاس ،ثم قـال من غشنا قليس منا [5].

غـــير ان معـــالم هـــذه الوظيفـــة لم تتحـــد معالمهـــا ومقاصـــدها إلا في العصـــر العباســـي وذلـــك بعـــد ظهـــور المـــذاهب الفقهيـــة وازدهـــار التجـــارة وتقـــدم الصـــناعة ،فأوجبـــت الحاجـــة الى مراقبـــة التجـــار والصـــناع ومختلـــف المتعـــاملين في الاسواق[6].

ومما لا شك فيه أن الفترة الإسلامية لبلاد المغرب قد عرفت علاقات مبكرة ووثيقة مع الجهات الجنوبية، فمن الثابت تاريخيا أن تيار الفتح الإسلامي للجزائر والمغرب العربي قد اختار المناطق الداخلية مسارا استراتيجيا له، تجنبا للمراكز البحرية البيزنطية المنتشرة على طول السواحل الشمالية أمام ضعف الأسطول البحري الإسلامي، وهو ما سمح للقوات العسكرية الإسلامية ملامسة التخوم الصحراوية كفتوحات عقبة بن نافع[7] في الصحراء الليبية

والجزائرية، والتي انتهت باستشهاد هذا القائد الفاتح بتهودة سنة 64 هـ 638 / م وهي قرية بسيدي عقبة ببسكرة[8] الواقعة في المنطقة الجنوبية الشرقية التي تعد الحدود الشمالية لإقليم واد ريغ .

فالقصور الصحراوية بصفة عامة كان لها منذ القديم دورا تجاريا مهما، إذ أن القوافل التجارية تجتاز العروق والكتل الجبلية لتتوقف في هذه القصور للبيع و الشراء والتزود بما تحتاجه من زاد، إذ أنها تقع في نقاط وصول وانطلاق هذه القوافل فتشكل فيما بينها خط من السير يعرف بطريق القصور أو طريق الواحات، والملاحظ هو اختلاف المسافة بين كل نقطة وصول من مكان خمسون كلم في حين تصل المراحل الكبرى بين هذه المراكز إلى عشرات الأيام من السير مما يدفع بالتجار إلى التزود بكل متطلبات الرحلة ثلاث أو أربع مرات فعلى سبيل المثال تستغرق قافلة تنطلق من قابس باتجاه ورقلة خمسة عشرة يوما ومن تقرت إلى ورقلة مرورا بنقوسة من أربعة إلى خمسة أيام وحوا أربعة أشهر لعبور الصحراء، ونتيجة لأهمية هذه الحركة التجارية بوادي ريغ و ورجلان أصبح من الضروري اتخاذ تنظيم محكم لوضع نقاط الانطلاق وربطها بمراكز التموين، وتوفير ضروريات الحياة التجارية من نزل ومخازن ومراسلات منضمة مع أهم النقاط التجارية [9]، ومن أهم الكتابات التي تطرقت للحديث عن هذا الاقليم من قبل الرحالة والجغرافيين من خلال ذكرهم لمعالمها وظروفها السياسية والحضارية من أمثال أبي القاسم محمد بن حوقل البغدادي 367) هـ 977 /

م (الذي ألف كتاب " صورة الأرض"، دون فيه جزءا مما شاهده من الصحراء الكبرى، ومحمد الشريف الإدريسي 561) هـ 1165 /م(، من خلال كتابه : "نزهة المشتاق في اختراق الآفاق"، والذي اقتبس منه الأستاذ المرحوم اسماعيل العربي القسم الخاص بالقارة الإفريقية وجزيرة الأندلس وحققه في سفر خاص) (14وللإشارة فالكتاب ينطوي على إشارات هامة عن الصحراء الجزائرية والمغاربية ولو كانت ضئيلة في عمومها، ويليه أيضا ابن سعيد المغربي الأندلسي 685)هـ 1286 /م(، الذي دون أخبار رحلاته ومشاهداته في مدونه الموسوم" كتاب الجغرافيا(15)"، وهو بدوره تضمن بعض الأخبار المقتضبة عن صحرائنا الجنوبية الشرقية، وكذلك محمد ابن بطوطة الطنجي 979هـ / 1377م ، الذي توغل في بلاد السودان في أعقاب رحلته الثالثة، وسجل لنا محصلة مشاهداته عن الصحراء الإفريقية الكبرى بما فيها الجزائرية، في كتابه المسمى" تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار[10].

والمذكورون سالفا من أولئك الجغرافيين العرب والمسلمين، ينتمون زمنيا إلى فترة العصور الوسطى، وما ورودهم في هذا السياق إلا كنموذج فقط وسط زمرة من نظرائهم، الذين يرجح زيارتهم للمناطق الجنوبية الشرقية الجزائرية أو غيرها من المناطق الصحراوية الإفريقية الكبرى، نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر، اليعقوبي) ق 3 هـ9 /م (في كتابه" البلدان"، والمقدسي 4هـ 10 /م (في كتابه "أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم "والبكري)ق 5 هـ 11 / م (في كتابه(

"المسالك والممالك "وابن الفقيه الهمذاني ق3 هـ9 /م في كتابه" مختصر كتاب البلدان "وياقوت الحموي 626) هـ 1228 / م في مؤلفه" معجم البلدان، بالإضافة الي العلامة ابن خلدون في كتابه المعروف بالمقدمة ، كما تحفل أيضا الفترة الحديثة، بعدد لا يستهان به من الجغرافيين العرب والمسلمين الذين وصفوا المناطق الجنوبية الشرقية، والصحراء الإفريقية الكبرى، ويأتي في مقدمتهم الحسن بن محمد الوزان الفاسي، المعروف عند الغرب بليون الإفريقي توفي حوالي 957 هـ 1550 م، الذي قام برحلة إلى الصحراء الجزائرية مستقصيا عنها بنفسه أو معتمدا على مصادر إخبارية وافرة المعلومات ويكفي أنه ذهب إلى خمسة عشر مملكة في بلاد السودان ، وكان ذلك في القرن 10 هـ 16 / م 18 [11].

كما يعد أبو سليم عبد الله بن محمد بن أبي بكر ،المعروف بالعياشي المغربي1037 / 1679م من أبرز الرحالة المغاربة الذين دونوا مشاهداتهم خلال أسفارهم عن 1090 - هـ1628 / الصحراء الجزائرية في العهد العثماني، إلى جانب كونه من أشهر المحدثين وأكبر الصوفيين في المغرب الأقصى الذين صنفوا العديد من الكتب في هذه المجالات ،إلا أن العياشي اشتهر برحلته التي سماها " ماء الموائد" ، وقد ضمنها أخبارا وافية وأدرج فيها حوادث مختلفة عاينها أو سمعها أثناء سفره عبر طريق الجنوب من المغرب إلى المشرق أين -1064 -أقام بعواصمه طلبا للعلم أو رغبة في الحج، فشرق ثلاث مرات، خلال سنوات1059/ 1661م (انطلاقا من سجلماسة) قرب

واحة تافيلات جنوب المغرب 1073 -1653 - هـ 1649 الأقصى (ثم إلى توات وورقلة وطرابلس، نافدا إلى مصر، لينتهي به المطاف في الحجاز، فوصف الصحراء وجغرافيتها كما تحدث عن السكان وأخلاق الناس وعوائدهم ومعيشتهم، ذاكرا أحوال، العلماء والصلحاء كما اهتم بالتجارة أيضا وقام بوصف اسواقها [12].

وتنظم الاسواق الي أنواع حسب ما ذكرتها المصادر الى اربع وهي كالتالي

اولا : اسواق محلية (اليومية) وتقام داخل القصر يفنائه الذي يعرف برحبة القصر او رحبة الجامع والتي يكون نشاطها دائما مستمرا والتي يعرض بها السلع الاستهلاكية التي تتصل باحتياجات اليومية .

ثانيا: اسواق أسبوعية والتي تقام في يوم معين من ايام الاسبوع والتي تباع بها البضائع الاستهلاكية والحيوانات والآلات وغيرها ،والتي توفر حاجيات السكان للقصر والارياف المجاورة ،والتي تقام دائما خارج اسوار القصر وهذا حفاظا على أمن وخصوصية القصر (انظر اللوحة رقم 1).

ثالثا :اسواق موسمية والتي تقام في مناسبات معينة ومواسم مختلفة خلال السنة كأسواق العيدين وجني التمور ....الخ.

ويقسم السوق على حسب المعروضات فسوق ورجلان يحتوي بدوره على اجنحة وكل جناح متخصص في بيع سلعة معينة وهي :

1جناح التمر تباع فيه مختلف أنواع التمور الطري منه والجاف وحتي غير الصالح لاستهلاك البشري ،بل يسوق علفا للحيوانات ،وتعد تمور ورجلان من أجود التمور التي كانت تسوقها القوافل الي سوق تمبكتو بالسودان الغربي ،التي تباع أحيانا بالعد لجودتها لا بالكيل أو الوزن [13].

2 جناح الحطب يجلب اليه على متن الابل من أعماق الصحراء ويباع بطريقتين إما بحمولة الجمل دفعة واحدة أو بالتقسيط فحمولة الجمل توزع على عدة أجزاء مختلفة في الاحجام والاثمان.(أنظر اللوحة رقم 2)

3 جناح المنتجات النسيجية تباع فيه منتجات النسيج المحلي التي تنسج محليا في البيوت بطريقة تقليدية من صوف الاغنام ووبر الابل مثل البرانيس والعباءات والحنابل والاغطية والاكياس التي تعرف محليا الغرايز [14]،أما طريقة البيع فتكون في الغالب بالمزاد العلني.[15]

4 جناح الخضر والفواكه ويعد هذا الجناح من اصغرها لكونها تعرض في السوق اليومية ناهيك ان اعلبية السكان يمتلكون مزارعهم الخاصة.

5 جناح الماشية تباع فيه المواشي بمختلف أنواعها من أغنام وماعز وإبل .

أما نظام البيع فكان بطريقة حضارية جد راقية لا تختلف عن المعاملات الحديثة ،عن طريق المزاد العلني وعن طريق المكاييل والموازين ، وبالعملة المعدنية بالإضافة الى البيع بالدفع المؤجل أو بالتقسيط حاليا حيث يقول ابوا العباس

الشماخي[16] أن رجلا باع جملا في ورجلان وعندما أراد قبض الثمن قال له المشتري ثمنها في تادمكة[17].

أما فيما يخص الساحات العامة لقصر تقرت (أنظر اللوحة رقم3) أو ما يعرف محليا بالرحبة فإنه لها دورا اجتماعيا واقتصاديا مهم يتضح من خلال كونها مكان لتجمع أهل القصر وإقامة احتفالاتهم كما تستغل كسوق تمتد على جوانبها مجموعة من الدكاكين فبالجهة الشرقية لقصر تقرت توجد ساحة مستطيلة بقرب القصبة والجامع الكبير تعرف برحبة الصوف محاطة بدكاكين تتقدمها مجموعة من الأقواس وهي شبيهة بقصر ورجلان(أنظر اللوحة رقم 4)[18]، هذا بالإضافة إلى رحبات صغيرة تفتح عليها الأزقة ضمن الأحياء وهي في الغالب يسكنها أناس من نفس العائلة.

ملحق اللوحات

اللوحة رقم 1 تمثل السوق الاسبوعية التي تقام خارج القصر

اللوحة رقم 2 تمثل للجناح المخصص لبيع الحطب

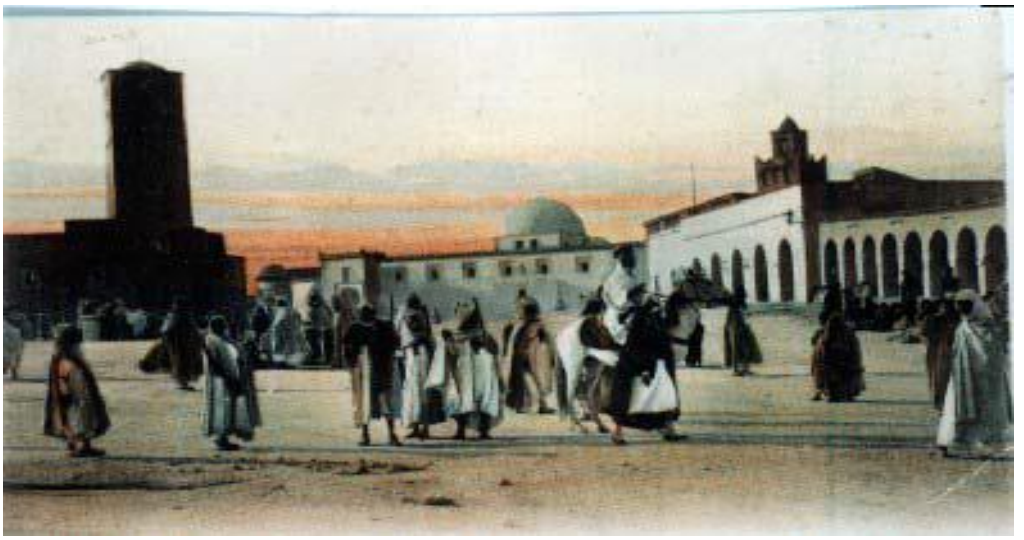

اللوحة رقم3 تمثل الساحة العامة والدكاكين لتقرت

اللوحة رقم4 تمثل الساحة العامة والدكاكين لورجلان

التهميش:

1- ناصر الدين سعيدوني ،من التراث التاريخي و الجغرافي للغرب الإسلامي،دار الغرب الإسلامي،بيروت،ط1، 1999،ص9.

2- أحمد فؤاد باشا،التراث العلمي الاسلامي،دار الفكر العربي ،القاهرة، ط2002،1 ،ص10.

3- رواه الترميذي في سننه في كتاب البيوع رقم 1130.

4- الآية 104 من سورة آل عمران.

5- رواه مسلم في صحيحه رقم 101.

6- شهرزاد بوسطلة، درور الحسبة في الوقاية من الفساد ومنعه، مجلة الاجتهاد القضائي، جامعة بسكرة، ع5،ص156.

7- عقبة بن نافع : عُقبة بن نافع الفهري هو أحد القادة الذين نشروا الإسلام والعربية بالمنطقة التي تعرف اليوم بالمغرب العربي الكبير، واسمه الكامل هو: عُقْبَةُ بْن نَافِعِ بن عَبْدِ قَيْسِ بْنِ لَقِيطِ بْنِ عَامِرِ بْنِ أُمَيَّةَ بْنِ الظَّرِبِ بْنِ الحَارِثِ بْنِ فِهْرٍ. وُلِدَ قبل وفاة الرسول –صلى الله عليه وسلم– بسنة واحدة، أي في عام 10 للهجرة/موافق 731هـ. فهو –إذن– تابعيٌّ جليل، أدرك عددا من كبار صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم .استشهد سنة 63 هـ لمزيد من التفصيل انظر: فتوح البلدان للبلاذري 280/1 ؛

تاريخ ابن خلدون 128/2-129 ؛ البداية والنهاية لابن كثير 112/7 ؛ البيان المغرب 15/1.

8- لمزيد من التفصيل انظر: فوزي مصمودي ،بسكرة بعيون عربية ،دار الهدي ،عين مليلة،2011.

9- يمينة حاضري، قصري تقرت وتماسين خلال فترة حكم بني جلاب ،رسالة ماجستير في الاثار الاسلامية ،قسم الاثار ،جامعة الجزائر،2001/2000،ص45.

10- الطيب بوسعيد، الصحراء الجنوبية الشرقية الجزائرية من خلال المصادر الجغرافية الإسلامية وكتب الرحلات المغربية خلال العهد العثماني، مجلة الواحات للبحوث والدراسات ،جامعة غرداية ،العدد 15، 2011،ص433.

11- نفسه،ص434.

12- نفسه،ص435.

13- أحمد ذكار ،حاضرة ورجلان وعلاقتها التجارية بالسودان الغربي، رسالة ماجستير في التاريخ الحديث، الجامعة الافريقية العقيد أحمد دراية،أدرار،2010/2009،ص84.

14- الغراير تستعمل عادة لحشي التمور وتسنع من القماش.

15- أحمد ذكار ،المرجع السابق،ص85.

16- نفسه،ص86.

17- تادمكة :تقه شرق غاو وتبعد عن ورجلان مسيرة خمسون يوما ،وتعتبر احدي المراكز التجارية في شمال افريقيا .

18- حضري يمينة، المرجع السابق،ص117.